النكبة مجدداً

دان فريمان ـ مالوي *

"ماحال" وطرد الفلسطينيين من أرضهم**

لم تستقطب مشاركة آلاف المتطوعين من الخارج "ماحال" في العمليات العسكرية الصهيونية التي نُفّذت خلال حرب ١٩٤٨، اهتماماً نقدياً كافياً. فهؤلاء المتطوعون تألفوا بصورة أساسية من محاربين ناطقين باللغة الإنجليزية، وكانوا شاركوا في القتال في الحرب العالمية الثانية، وقد جنّدتهم الحركة الصهيونية في الغرب نظراً إلى خبرتهم في اختصاصات كانت بحاجة إليها مثل سلاح المدفعية والحرب المدرَّعة والقتال الجوي، وفاقت أهميتهم في المجهود العسكري أعدادهم إلى حد كبير. وتدرس هذه المقالة انخراطهم من منظار السياق التاريخي الأوسع للدعم الغربي للمشروع الصهيوني، وتبحث في الدور الذي مارسوه داخل منظمة الهاغاناه الصهيونية والجيش الإسرائيلي (ولا سيما في الوحدات الجوية والمدرعة) في العمليات التي أدّت إلى تهجير الفلسطينيين بالوسائل العنفية.

في سنة ١٩٤٨، توجه آلاف المتطوعين من البلاد التي يقيمون فيها إلى فلسطين للمشاركة في العمليات العسكرية الصهيونية. وهناك عدة روايات عن مشاركتهم، بيد أن سجلّ أولئك المقاتلين الصهيونيين الذين يُطلَق عليهم رسمياً اسم "ماحال" (الأحرف الأولى من اسمهم الكامل بالعبرية: مِتْنَدْفي حوتس لأَرِتْس/"متطوعون من الخارج") حُرّف خدمة للتأريخ الصهيوني التقليدي. فمجنّدو "ماحال" يُصوَّرون بصورة عامة على أنهم "أبطال منسيون"، مثلما يصفهم المؤرخ ديفيد بركوسون في كتابه "الجيش السرّي"،[١] كما أن بنيامين نتنياهو، وفي توطئة كتبها لدراسة نُشرت لمناسبة احتفالات اليوبيل الذهبي في إسرائيل في سنة ١٩٩٨، يثني على "المساهمة في النضال من أجل الحرية" التي قدّمها مقاتلو "ماحال".[٢] ويشرح واضعو تلك الدراسة أنه "بالنسبة إلى هؤلاء، فإن اليهود هم وحدهم أصحاب الحق"،[٣] علاوة على أن المذكرات العديدة التي كتبها مقاتلون متطوعون بأنفسهم تشدد على البطولات في خدمة قضية عادلة.[٤] ويختصر يتسحاق رابين، في التوطئة التي كتبها لأحد تلك المجلدات، الرواية المعتمدة فيقول: "إن المساهمة التي قدّمتها هذه المجموعة

* طالب دكتوراه في سياسة الشرق الأوسط في جامعة إكستر، ومنتسب إلى المركز الأوروبي للدراسات الفلسطينية في الجامعة.

** المصدر: *Journal of Palestine Studies* 158, vol. XL, no. 2 (Winter 2011), pp. 43-61.

ترجمة: نسرين ناضر.

الصغيرة من الرجال والنساء تُسطِّر فصلاً مجيداً في قصة نضال إسرائيل من أجل الحرية."[٥]

وتختلف التقديرات بشأن أعداد متطوعي "ماحال" الذين توزعوا عبر الوحدات المتعددة في القوات الصهيونية، فقد قدّر إحصاء إسرائيلي أولي عددهم بـ ٢٤٠٠ متطوع، غير أنه الآن يجزم أن هذا الرقم هو أقل من العدد الفعلي.[٦] وفي الواقع، فإن بركوسون يؤكّد أنه كان هناك "ما يزيد على ٥٠٠٠ متطوع أجنبي خدموا في القوات الإسرائيلية"، كما أن بِني موريس يذكر تقديرات تتحدث عن عدد "يفوق ٤٠٠٠ متطوع."[٧] واعتبرت دراسة موجزة نشرتها وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية في سنة ٢٠٠٧ أن العدد يناهز الـ ٣٥٠٠ متطوع.[٨] وفي مختلف الأحوال، ونظراً إلى أن مجموع أعداد الجنود الإسرائيليين قارب الـ ١٠٠,٠٠٠ بحلول نهاية سنة ١٩٤٨، فإن أهمية مقاتلي "ماحال" لم تكن تكمن في أعدادهم،[٩] إذ ورد على لسان دافيد بن ـ غوريون أن "المساهمة الخاصة التي قدّمها مقاتلو 'ماحال' كانت نوعية".[١٠] فهؤلاء المقاتلون الذين هم في أغلبيتهم محاربون ناطقون بالإنجليزية كانوا قد شاركوا في الحرب العالمية الثانية، وضعوا مهاراتهم التخصصية في تصرّف المجهود العسكري الصهيوني، وقد أدت خبرتهم بالتنظيم العسكري الحديث وسلاح المدفعية والحرب المدرعة والقتال البحري والجوي، دوراً أساسياً في تسهيل تطور القوة العسكرية الإسرائيلية (ووضعها باكراً موضع التنفيذ).

وقد كُتب بالتدريج هذا "الفصل المجيد"، كما يسميه رابين، في "الرواية البطولية" [السائدة] عن تأسيس إسرائيل،[١١] لكن لا بد من إعادة نظر أكثر نقدية في دور المجندين الأجانب في التحول السياسي والديموغرافي الذي شهدته فلسطين في سنة ١٩٤٨، ذلك بأن الأحداث التي سجّلها التأريخ الصهيوني بعنوان "حرب الاستقلال الإسرائيلية" كانت غزواً استعمارياً في نظر الفلسطينيين الذين عاشوها، وأدت إلى تهجير نحو ٧٥٠,٠٠٠ منهم من منازلهم. وكان التطهير الإثني الواسع النطاق من أبرز سماتها، وهو واقع مؤلم تفاقم أكثر فأكثر بفعل الإنكار والتضليل، وحتى جرّاء الاحتفالات التي أحاطت به منذ حدوثه. وفي ضوء ما تقدّم، فإن هذه المقالة تعيد النظر في سجل مجنّدي "ماحال".[١٢]

سياسة الإكراه وركائزها الدولية

سعت المنظمة الصهيونية العالمية، منذ تأسيسها في سنة ١٨٩٧، لتحقيق أطماعها في فلسطين عن طريق النشاط التنظيمي في أوروبا وأميركا الشمالية، والتقرّب الاستراتيجي من القوى الإمبريالية الكبرى في ذلك الوقت. وحققت هذه المقاربة نجاحاً باهراً خلال الحرب العالمية الأولى عندما حصلت الحركة الصهيونية على رعاية بريطانية لإنشاء "وطن قومي" لليهود في فلسطين، وقد اكتسبت هذه الرعاية زخماً بفعل الاحتلال البريطاني لفلسطين خلال الحرب، وأصبحت لاحقاً جزءاً من الحكم البريطاني على فلسطين بموجب انتداب أقرّته عصبة الأمم. ومع نمو الاستيطان اليهودي السابق لإنشاء الدولة (اليشوف) خلال مرحلة الانتداب البريطاني (١٩٢٢ – ١٩٤٨)، انتقل مركز صنع القرار الصهيوني بالتدريج من أوروبا إلى فلسطين، فتراجعت رئاسة حاييم وايزمان للمنظمة الصهيونية العالمية التي كانت تتخذ من لندن مقراً لها أمام قيادة دافيد بن ـ غوريون التي كانت تتمركز بصورة أساسية "في الميدان"،[١٣] إلاّ إن قوة اليشوف، على الصعيد العسكري، وفي مختلف الصعد الأُخرى، ظلت تعتمد إلى حد كبير جداً على الدعم الدولي.

وكانت الأموال التي ترسلها المنظمات الغربية التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية ـ ولا سيما مؤسسة "النداء الفلسطيني الموحد"

التي كانت تبعث أموالاً من أميركا الشمالية إلى فلسطين عن طريق "كيرن هَيسود" (الصندوق التأسيسي) ـ تُخصّص بحسب الأولويات التي وضعها المجلس التنفيذي الصهيوني، وضمنها بناء القدرات العسكرية.[١٤] أمّا فيما يتعلق بشؤون السياسة الرسمية والدبلوماسية، فإن المنظمة الصهيونية العالمية بدأت العمل في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى تحت اسم "الوكالة اليهودية" التي كانت تتمتع بوضع قانوني رسمي في ظل الانتداب البريطاني.[١٥] وأيضاً، وعلى الرغم من أن [منظمة] الهاغاناه، الذراع العسكرية للمنظمة الصهيونية العالمية، لم تكن شرعية على المستوى الرسمي، فإنها كانت تحصل عملياً على دعم مهم (ولو متفاوت) من السلطات البريطانية، وقد تلقت الدعم الأكبر خلال الثورة الفلسطينية العربية في الفترة ١٩٣٦ – ١٩٣٩، عندما عمد البريطانيون إلى تجهيز أقسام من الهاغاناه وتدريبها للمساعدة في إخماد الانتفاضة، وذلك في إطار "الوحدات الليلية الخاصة" و"الشرطة الإضافية".[١٦] وقد عززت خبرات البريطانيين إمكانات الهاغاناه وساهمت في صوغ عقيدتها العسكرية، ولا سيما تفضيلها شنّ الهجمات على القرى العربية ليلاً.[١٧]

وبحلول أواخر الثلاثينيات، كان صانعو القرار الصهيونيون الكبار يُجرون، كما بيّن نور مصالحة، نقاشات داخلية صريحة بشأن طرد الفلسطينيين عنوةً (أو "نقلهم/transferring")، فسحاً في المجال أمام إنشاء دولة يهودية.[١٨] وهكذا يمكن القول إن مصير الصهيونية الدولتية (أي الهادفة إلى إنشاء دولة)، وسعيها لفرض أكثرية ديموغرافية يهودية، كانا معتمدين على القوة القاهرة، ففي حزيران/يونيو ١٩٣٨، شدد بن ـ غوريون، في نقاش بشأن "نقل" الفلسطينيين أجراه مع اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، على أنه على الرغم من أنه يجدر بالحركة الصهيونية أن تسعى للحصول على الموافقة العربية، فإنه "ينبغي لها فرض النظام والأمن، وهي لن تفعل ذلك عن طريق إعطاء دروس في الأخلاقيات وإطلاق 'عظات على الجبل'، وإنما بواسطة الرشاشات التي سنحتاج إليها."[١٩] "وبالنسبة إلى بن ـ غوريون"، كما كتب شَبتاي تيفيت، واضع سيرة بن ـ غوريون: "فقد أصبحت علاقة اليشوف بعرب فلسطين مسألة عسكرية لا سياسية."[٢٠]

وكان الدعم السياسي الدولي ضرورياً لبناء قوة عسكرية في الداخل، ولذلك أطلق بن ـ غوريون، الذي خطط للانفصال استراتيجياً عن بريطانيا، مجهوداً لإرساء قاعدة دعم بديلة في الولايات المتحدة، معلناً تطلّعه إلى "السيطرة على اليهود الأميركيين" تحقيقاً لهذه الغاية.[٢١] وسرعان ما استقطبت حملته الأميركية الدعم من شخصيات صهيونية أميركية محورية مثل هنري مونتور وآبا هيليل سيلفر، ولاقت نجاحاً كبيراً، ففي ربيع سنة ١٩٤٢، خرج الصهيونيون الأميركيون من مؤتمرهم المفصلي في فندق بيلتمور في نيويورك مطالبين بـ "إقامة كومنولث يهودي في فلسطين مندمج في هيكلية العالم الديمقراطي الجديد"،[٢٢] وكانت التعابير التي استُخدمت في الأعوام السابقة للمطالبة بدولة لليهود، مثل مصطلح "وطن قومي"، قد "أصبحت تُعتبر شبه لاأخلاقية في نظر كثير من الصهيونيين" في الولايات المتحدة.[٢٣] بيد أن معنى "فلسطين... ككومنولث يهودي" كان واضحاً، وهكذا ضمن [بن ـ غوريون] قاعدة دعم أميركية للصهيونية الدولتية التوسعية.

وسرعان ما تبدد التهديد بتقدّم قوى المحور في الشرق الأوسط، وتكثّف الحشد العسكري الصهيوني، بدعم مالي من المانحين الصهيونيين في الغرب، ووُضعت برامج الوكالة اليهودية الممولة من مؤسسة "النداء الفلسطيني الموحد" تحت عنوان "التنظيم والأمن القوميين" وبلغت ميزانيتها أكثر قليلاً من ٣,٨ ملايين

دولار خلال الفترة ١٩٤٥ – ١٩٤٦، لترتفع إلى ٢٨ مليون دولار في سنة ١٩٤٨، مع تخصيص ٢٥ مليون دولار منها لـ "الحاجات الأمنية".[٢٤] بيد أن هذا الجمع للتبرعات المعفى من الضرائب كان خاضعاً لإشراف الحكومة الأميركية، ولذا أطلق بن ـ غوريون الذي زار الولايات المتحدة في صيف سنة ١٩٤٥، منظومة دعم موازية للنضال العسكري رسمت مستقبل فلسطين.

واستعان بن ـ غوريون بهنري مونتور، المدير التنفيذي لمؤسسة "النداء الفلسطيني الموحد" آنذاك، للدعوة إلى اجتماع للمانحين الموثوق بهم والذين يمكن التعويل عليهم ليتحركوا بتكتم، فنشأت شبكة سرّية أُطلق عليها اسم "معهد سونبورن"، ساعدت الوكالة اليهودية على توسيع نشاط الهاغاناه في مختف أنحاء الغرب.[٢٥] وسرعان ما توسّع عمل الشبكة إلى ما هو أبعد من جمع الأموال كي يشمل شراء معدات عسكرية وتهريبها من أميركا الشمالية وأوروبا (يتطرق ريكي ـ ديل كالهون إلى هذا المجهود في مقالة له في *Journal of Palestine Studies* 144, vol. 36, no. 4, Summer 2007, pp. 22-32).[٢٦] وفي سنة ١٩٤٨، تبيّن أن منظومة الدعم هذه وفرت وسيلة قيّمة جداً للالتفاف على الحظر العسكري الدولي الذي فُرض على جميع الأطراف في النزاع الفلسطيني، كما أنها أتاحت تجنيد طاقم عسكري ماهر في المجهود الحربي الصهيوني.

إعادة هيكلة الهاغاناه ودور "ماحال"

عقب نجاح حملة بن ـ غوريون الأميركية في بيلتمور، خلص دبلوماسي بريطاني إلى أن "الهدف الصهيوني ليس أقل من السيطرة بالقوة على فلسطين بعد الحرب، وذلك عبر التعويل على التأثير الأميركي كي نلتزم نحن [البريطانيون] الصمت."[٢٧] وقد أصاب هذا في كلامه الذي استبق به مسار الصهيونية الدولتية بعد الحرب، ففي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦، أيد الرئيس هاري ترومان مطلب إنشاء دولة يهودية على الرغم من الاعتراضات البريطانية، موفراً بذلك نفوذاً أساسياً لقيادة الييشوف في ضغطها المتعاظم لطرد البريطانيين من فلسطين.[٢٨] وبحلول شباط/ فبراير ١٩٤٧، أعلنت بريطانيا نيّتها التخلي عن الانتداب، وأحالت مسألة فلسطين إلى الأمم المتحدة، وبينما مهّدت التطورات الدبلوماسية للانسحاب البريطاني، استعدت الهاغاناه لترسيخ وجودها في موقع القوة العسكرية المسيطرة في فلسطين.

وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٦، تولى بن ـ غوريون الذي كان يقود الييشوف منذ ما يزيد على عقد من الزمن، السيطرة المباشرة على ملف الدفاع.[٢٩] وبحلول أواخر سنة ١٩٤٧، كانت قد تبلورت هيكلية قيادة عسكرية موحدة (على رأسها بن ـ غوريون)، وكانت الفرقة الميدانية، وهي القوة القتالية الأساسية في الهاغاناه، تتوزع في البداية على ستة ألوية: غولاني؛ كرملي؛ ألكسندروني؛ كيرياتي؛ غفعاتي؛ عتسيوني. وكانت قيادة قوة البالماح المرتبطة بالصهيونية العمالية اليسارية الوسطية تتمركز في مقر منفصل مع استمرارها في العمل في ظل قيادة الهاغاناه. ومع أن المنظمتين اليمينيتين المتطرفتين، إيتسل (إرغون) وليحي (عصابة شتيرن)، كانتا تعملان بصورة مستقلة، إلاّ إن ذلك كان يتم بتنسيق مستمر مع الهاغاناه. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر، أنشأت الهاغاناه أيضاً "خدمة جوية" تحولت رسمياً إلى سلاح الجو الإسرائيلي في أيار/مايو ١٩٤٨، كما أضيف لواء سابع وثامن (مدرع) وتاسع إلى الفرقة الميدانية. وقد مارس مجنّدو "ماحال" التأثير الأكبر في بعض هذه الألوية.

ومن أجل زيادة أعداد الجنود، أنشأت الهاغاناه لجنة خاصة للتعبئة، وأصدرت إلى اليشوف في مطلع كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧، أمراً بالتعبئة.[٣٠] وبهدف توفير الخبرات بالقيادة والأمور التقنية، سعى بن ـ غوريون لتجنيد محاربين شاركوا في الحرب العالمية الثانية، من داخل اليشوف وخارجه.[٣١] صحيح أن التجنيد من الخارج بدأ في وقت سابق، إلاّ إنه أصبح أكثر تنظيماً في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ عندما قررت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية إنشاء "لجنة التعبئة في الخارج"،[٣٢] ففي أميركا الشمالية، أنشأت منظومة الدعم التي كان يشرف عليها معهد سونبورن والفرع الأميركي للوكالة اليهودية (برئاسة آبا هيليل سيلفر)، ذراعاً للتجنيد باسم "الأرض والعمل من أجل فلسطين"،[٣٣] أمّا في جنوب إفريقيا، فقد عملت "الرابطة من أجل الهاغاناه" على حشد الدعم علناً، فاستقطبت أعداداً من المتطوعين من الكونغو البلجيكي وكينيا وروديسيا وجنوب إفريقيا أكبر من تلك التي كانت الهاغاناه المهتمة فقط بالمحاربين المتمرسين والماهرين، قادرة على استيعابها، الأمر الذي يحقق لها الفائدة.[٣٤] وامتد التجنيد، عن طريق عدة وسائل، من أوروبا الغربية إلى أميركا اللاتينية وغيرها من المناطق، وغالباً ما كان هناك ترابط بين حملات الترويج العامة والدعم العسكري السري للسعي لإقامة دولة صهيونية (بما في ذلك تجنيد الأجانب). فعلى سبيل المثال، كان المحارب الكندي بن دونكلمان، الذي شارك في الحرب العالمية الثانية، مسؤولاً عن العلاقات العامة في أونتاريو في المنظمة الصهيونية الكندية، ثم رئيس لجنة التوجيه والإدارة الكندية في الهاغاناه وذلك قبل أن يتوجه إلى فلسطين حيث أصبح قائد كتيبة مارس عناصرها تطهيراً إثنياً بحقّ معظم سكان الجليل في صيف وخريف سنة ١٩٤٨.[٣٥]

ولم يكن "ماحال" القوة القتالية الوحيدة التي "جُنّدت" من الخارج، فقد سعت الهاغاناه أيضاً لإحضار مهاجرين من اليهود الذين كانوا موجودين في معسكرات "الأشخاص المشردين" في أوروبا، والذين اعتُرض كثيرون منهم واحتُجزوا في معسكرات الاعتقال البريطانية في قبرص خلال سنة ١٩٤٨، وقد عُرف هؤلاء اللاجئون بـ"غاحال"، وتعني حرفياً "المجنّدين من الخارج"، ويميزهم المؤرخون عن "ماحال"، تماماً كما ميّزتهم السلطات الإسرائيلية في سنة ١٩٤٨، لأن دورهم القتالي "لا يندرج بدقة في إطار العمل التطوعي."[٣٦] لكن على الرغم من أن الـ "ماحال" كانوا فعلاً متطوعين، فإنهم عملياً، كانوا يُجنّدون ويُعتبرون أحياناً مرتزقة. وقد هزّت الخلافات مع عناصر الـ "ماحال" بشأن الأجور وشروط الخدمة (المرتبطة أيضاً بقسم ولاء رفضه عدد كبير من مجنّدي "ماحال")، سلاح الجو الإسرائيلي بحلول صيف سنة ١٩٤٨، ووُضعت في نهاية الأمر ترتيبات رسمية لدفع رواتب لهم. وفي غضون ذلك، "سرت شائعات أن أحد الطيارين الذين يقودون المقاتلات يتقاضى ٢٠٠٠ دولار أميركي (٥٠٠ جنيه إسترليني) في الشهر، وأنه وُعد بعلاوة قدرها ٥٠٠ دولار أميركي (١٢٥ جنيهاً إسترلينياً) عن كل طائرة يسقطها."[٣٧]

وسعت السلطات البريطانية، حتى انتهاء الانتداب، للحؤول دون تدفق المجنّدين العسكريين إلى فلسطين، كما أن الأمم المتحدة عملت لاحقاً على إبقاء العوائق أمام دخول المقاتلين المحتمل قدومهم،[٣٨] غير أن مجنّدي "ماحال" تجاوزوا هذه القيود مستخدمين ذرائع كاذبة للسفر، أو عبر سلوك الطرقات الجوية والبحرية التي كانت تساعدهم على تفادي [احتمال] الاعتراض والتوقيف [من طرف البريطانيين].[٣٩] وقد وُزِّعَت مجموعات صغيرة على مختلف أقسام الهاغاناه منذ مطلع ربيع سنة ١٩٤٨، ووصلت أعداد أكبر بعد انتهاء الانتداب،[٤٠] وبرز هؤلاء الأشخاص بصورة

خاصة في سلاح المدفعية والوحدات المدرعة والبحر والجو التي كانت بحاجة إلى مهارات متخصصة. ونجم عن وجودهم في بعض الوحدات أن صارت تُعرّف بهم، مثل السريّة الإنجليزية في كتيبة الدبابات الثانية والثمانين، والكتيبة "الأنغلو ـ سكسونية" (المدرعة ٧٢) التابعة للواء السابع.[٤١]

وانضم أحد المجنّدين الأجانب الأعلى رتبة، الكولونيل الأميركي ديفيد "ميكي" ماركوس، باكراً إلى الهاغاناه، وانخرط بعمق في عملية الإصلاح الهيكلي للمنظمة.[٤٢] وكان ماركوس، الذي تخرّج من كلية وست بوينت العسكرية، عمل في طاقم الجنرال دوايت دي أيزنهاور في مقر قوة التدخل السريع التابعة للحلفاء في أوروبا،[٤٣] ولدى وصوله إلى فلسطين في مطلع سنة ١٩٤٨، عمل مساعداً تنظيمياً واستراتيجياً مقرّباً من بن ـ غوريون، في الوقت الذي كانت الهاغاناه توسّع عملياتها (أصبح قائد جبهة القدس في أواخر أيار/مايو قبل أن يسقط بنيران صديقة في مطلع حزيران/يونيو، وكان أول ضابط في الهاغاناه يبلغ رتبة جنرال).[٤٤]

وأدى مجنّدو "ماحال" دوراً مهماً جداً في تطور سلاح الجو الإسرائيلي وانتشاره. فعلى سبيل المثال، اختير المحارب في سلاح الجو، الجنوب إفريقي، بوريس سينيور، لتولّي قيادة السرب الجوي الأول في الهاغاناه، والذي أنشئ في أواخر سنة ١٩٤٧ على مقربة من تل أبيب[٤٥] (انضم سينيور أولاً إلى منظمة الإرغون، لكن أعيد توجيهه إلى الهاغاناه من أجل الإفادة من خبرته).[٤٦] وفي التعداد النهائي، فإن عدد مجنّدي "ماحال" في سلاح الجو الإسرائيلي بحلول نهاية سنة ١٩٤٨، كان يُقدّر بـ ٦٦٦ شخصاً كانوا المكوِّن الأساسي في عديد القوات الجوية الإسرائيلية التي كانت تضم ٦٠٠٠ عنصر تقريباً، فشكّلوا "نحو ٧٠٪ من طاقم الطائرات الحربية الذي خدم خلال الحرب، والذي كان يتألف من ٥٢٥ عنصراً، كما أن نسبتهم من الطيارين كانت أعلى كثيراً."[٤٧] وهكذا كانت الإنجليزية اللغة الأساسية للقوات الجوية الإسرائيلية التي انتشرت في فلسطين ٤٨.[٤٨]

لقد أصبح وجود المحاربين المتخصصين منتشراً على نطاق واسع في النصف الثاني من سنة ١٩٤٨، لكنهم، منذ البداية، ساعدوا الهاغاناه في التحرك بعدوانية داخل المساحة السياسية والعسكرية التي شغرت بفعل الانسحاب البريطاني المتدرج.

بداية مشاركة "ماحال" المباشرة في "الطرد/الترانسفير": هجمات الربيع

خلال سنة ١٩٤٧، شكّل الاختلاف في الآراء بين الأميركيين والبريطانيين بشأن مسألة فلسطين، ومداولات الأمم المتحدة التي كانت بدأت في نيسان/أبريل، والحتمية المتزايدة للانسحاب البريطاني، الخلفية الدبلوماسية لاستعدادات الهاغاناه. وبلغت التطورات منعطفاً أساسياً في أواخر تلك السنة، ففي ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، وتحت تأثير الضغوط الشديدة من الولايات المتحدة، أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار ١٨١ الذي أوصى بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأُخرى عربية. ونحن هنا لسنا في وارد التطرق إلى التداعيات الكاملة لهذا القرار،[٤٩] لكن لعل أهم أثر ملموس له في غياب آلية لتنفيذه، تمثّل في المساهمة في التعجيل في انتهاء الانتداب.

فبينما كانت القوات البريطانية تتخلى بالتدريج عن السيطرة على فلسطين استباقاً لرحيلها المقرر في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨، بدأت الهاغاناه تزيد في نشاطها، وتمثّل الإطار السياسي الأول لعملياتها ضد الفلسطينيين في خضم الانسحاب البريطاني المتدرج، في الخطة "ج" التي تضمنت اتخاذ "إجراءات مضادة"

عقابية وغير متكافئة ضد الفلسطينيين تهدف إلى إبقاء الخطوط مفتوحة مع المستوطنات اليهودية وردع أي عمل ضدها.[٥٠] لكن لا العنف الفلسطيني المتقطع، ولا دخول العناصر غير النظامية المنضوية تحت لواء "جيش التحرير العربي" إلى فلسطين في مطلع سنة ١٩٤٨، نجحا في عقلنة التحول الديموغرافي الشامل الذي كانت تشهده فلسطين. ومع بلوغ عمليات الهاغاناه حدود الثأر الواضح للعيان، استُبدلت الخطة "ج" بسياسة عملانية هدفت إلى طرد الفلسطينيين من الأراضي التي تم الاستيلاء عليها.

وينسب إيلان بابِه آلية صنع القرار الكامنة وراء هذه المستجدات إلى مجموعة صغيرة شكّلها بن ـ غوريون، وضمّت مستشارين متخصصين بالشؤون العربية وأعضاء في القيادة العليا في الهاغاناه، وقد أشار إليها بن ـ غوريون في أحد مداخل مذكراته بصفتها "مجموعة من الخبراء" ("مِسيبات مومحيم").[٥١] إن فرضية بابِه، التي تنسجم مع نظرة نور مصالحة إلى سياسة الطرد الصهيونية وتقويم وليد الخالدي لسجل الوثائق الإسرائيلية،[٥٢] تتعارض مع التأكيدات الإسرائيلية أن أهدافاً محض عسكرية (لا أهدافاً سياسية ـ ديموغرافية) كانت تُحرِّك سياسة الطرد التي مارستها الهاغاناه. وهذه المقالة لن تتناول السجال الدائر في هذا الصدد،[٥٣] وإنما يكفي التشديد على أن سياسة الهاغاناه، وانخراط "ماحال" فيها، التقيا في سنة ١٩٤٨ على طرد آلاف الفلسطينيين من منازلهم.

وفي أوائل آذار/مارس، وُضعت اللمسات الأخيرة على الخطة "د"، التي رسمت سياسة الطرد العدواني الهجومية التي انتهجتها الهاغاناه، وقد حددت الخطة إطار هجوم واسع، ونصّت تحديداً على طرد الفلسطينيين بأعداد كبيرة: "في حال المقاومة، يجب إبادة القوات المسلحة وطرد السكان خارج حدود الدولة"، وعلى هدم قراهم بالكامل: "تدمير القرى (إحراقها، وتفجيرها، وزرع ألغام في الأنقاض)، ولا سيما المراكز السكنية التي تصعب السيطرة عليها بشكل مستمر."[٥٤] وصدرت الأوامر، وأُنشئت قوة هجومية أكبر بثلاث مرات من أي قوة استُخدمت في عمليات الهاغاناه السابقة.[٥٥] هكذا، وبعدما أصبحت الهاغاناه جاهزة، أُطلقت الخطة "د" في ٥ نيسان/أبريل مع بدء "عملية نحشون".

وتصف الروايات الرسمية الإسرائيلية عملية نحشون بصورة عامة بأنها كانت مجهوداً لرفع الحصار عن القسم اليهودي من القدس (لتحريره من "الأحبولة العربية التي تخنق المدينة"، كما كتب يغآل ألون)،[٥٦] والأصح أنها كانت هجوماً يهدف إلى دمج منطقة القدس ـ التي ينص القرار ١٨١ الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة على تدويلها ـ ضمن الدولة اليهودية، وربطها بالسهول الساحلية حيث كانت تتركز المستوطنات اليهودية، الأمر الذي يعني احتلال جزء كبير من القرى الفلسطينية.[٥٧] وكان التطهير الإثني النتيجة الطبيعية والواضحة للخطّة، وقد بدأ هذا التطهير على نطاق واسع، واستمر في العمليات الاثنتَي عشرة الإضافية التي نُفِّذت في إطار الخطة "د" طوال أيار/مايو.

وفي هذه الأجواء، بدأت مجموعات من مجنّدي "ماحال" تصل في نيسان/ أبريل، واتخذ اندماجهم في الوحدات القتالية شكلين أساسيين هما: تعيين المحاربين ذوي الخبرات المحددة على أساس فردي، ودمج مجموعات بالجملة في الوحدات القائمة. وسنعرض هنا هذين الشكلين عبر التوقف عند أمثلة للمجنّدين الأوائل الذين قَدِموا من كندا.

كان بن دونكلمان حارب مع "فرقة البنادق الكندية التابعة للملكة" خلال الحرب العالمية الثانية، وكان خضع في بريطانيا لتدريب قتالي مكثف خاص بالضباط لتعلّم استخدام مدافع الهاون. وقد جنّدته الهاغاناه في سنة

١٩٤٧، ووصل إلى فلسطين في مطلع نيسان/أبريل ١٩٤٨. وشارك دونكلمان في عمليات متنوعة قبل تعيينه في أيار/مايو في طاقم التخطيط في لواء هارئيل التابع لفرقة البالماح، وهو بصفته هذه، يُعتبر المسؤول الأول عن سير "عملية مَكّابي".

وعلى غرار عملية نحشون، فإن الهدف من عملية مكّابي كان إنشاء "ممر إلى القدس" خالٍ من القرى الفلسطينية والجيوش العربية غير النظامية. وكانت النتيجة الرئيسية لهذه العملية هي الاستيلاء على قرية بيت محسير التي كانت تضم نحو ٢٠٠٠ نسمة وتقع على التلال جنوبي الطريق الرئيسية المؤدية إلى القدس، وقد تعرضت هذه القرية لقصف مدفعي وهجمات جوية متواصلة قبل أن تسقط في يد قوات البالماح صباح ١١ أيار/مايو.[٥٨] ويعزو دونكلمان هزيمة القرية التي كانت صمدت في وجه الهجمات السابقة، إلى إصراره على شن هجوم مفاجئ قبل الفجر "تحت غطاء النيران الكثيفة التي أُطلقت من مدفع هاون دافيدكا" (مدفع كانت الهاغاناه تستخدمه في القتال، وكان يُطلق قذائف غير دقيقة زنتها ٤٠ كيلوغراماً وتُصدر ضجيجاً عالياً ـ كانت محشوة بالمسامير وشظايا متنوعة أُخرى ـ وكان لها تأثير "محطِّم للمعنويات"، بحسب تعبير دونكلمان).[٥٩] وبعد ساعات من السيطرة على القرية، بلّغ لواءُ هارئيل قائدَ العمليات في الهاغاناه، يَغَئيل يادين، بما يلي: "إننا نفجّر المنازل الآن، وقد فجّرنا ما يتراوح بين ٦٠ و٧٠ منزلاً حتى الآن."[٦٠] وفي نهاية المطاف، دُمِّرت القرية بكاملها.

وكان دونكلمان معجباً بسلاح المدفعية في الهاغاناه من دون أن يتوانى عن انتقاده، وقد أثنى على مدفع دافيدكا ووصفه بأنه "من عجائب حرب ١٩٤٨."[٦١] لكنه كان متلهفاً لإدخال معدات وتقنيات أكثر تقدماً، ولهذه الغاية، التقى بن ـ غوريون وخرج من اجتماعه به وقد حصل على "سلطة كاملة وشاملة على جميع مراحل العملية: الإنتاج والتوزيع وتدريب الطواقم."[٦٢] وتؤكد مذكرات بن ـ غوريون أنه أجاز لدونكلمان "العمل على إنتاج مدافع هاون ٦ إنشات."[٦٣] وهكذا كان للخبير الكندي بسلاح المدفعية مشاركة عن كثب في تطوير واحد من أبرز الأسلحة الهجومية التي استخدمتها القوات الإسرائيلية لطرد الفلسطينيين من أرضهم في الأشهر اللاحقة.

وخلافاً لتكليف دونكلمان بمهمات فردية واضطلاعه بأدوار متخصصة، فإن ٢٧ متطوعاً كندياً كانوا وصلوا إلى فلسطين في الوقت نفسه تقريباً، وُضعوا في معسكر تدريبي للهاغاناه قبل ضمهم إلى لواء غِفْعاتي،[٦٤] وقد استمر هذا اللواء الذي كان المرتكز الأساسي في عملية نحشون، في تأدية دور بارز في هجمات الهاغاناه.[٦٥] ووصل المجنَّدون إلى مركز عملهم في الوقت الذي كان لواء غِفعاتي يهاجم قرية عقير في ٤ أيار/ مايو،[٦٦] وسرعان ما أصبحوا يشكّلون نحو نصف عدد الجنود في واحدة من سريَّتين تألفت منهما الكتيبة ٥٢. وبعد بضعة أيام، أطلق لواء غِفعاتي "عملية بَراك" التي هدف من خلالها إلى بسط سلطته على المنطقة الساحلية غربي اللد والرملة. وقد استهدف الهجوم الذي توغل عميقاً في قضاء غزة، مراكز فلسطينية مثل أسدود (تُعرَف الآن بأشدود) والمَجْدل (تُعرَف الآن بأشكلون) وبِيبنا، بينما وصفه المسؤولون في لواء غِفعاتي بأنه مجهود يهدف "إلى إرغام السكان العرب على 'الانتقال'."[٦٧] وأسفرت هذه العملية عن الاستيلاء على يبنا والعديد من القرى الأصغر في المنطقة وإخلائها من سكانها، وفي ١١ أيار/مايو، تولت الكتيبة ٥٢ مع "مفرزتها الكندية" إخلاء قرية بَشّيت الفلسطينية من أهلها الذين كان عددهم يتجاوز الـ ١٦٠٠ نسمة، وتدميرها.[٦٨]

وباختصار، فإن انطلاقة مشاركة

الـ "ماحال" في الهاغاناه تقاطعت مع تعزيز إمكانات المنظمة، وتوسيع نطاق عملياتها، والتحول نحو التطهير الإثني الواسع النطاق، وشكل ذلك كله إطاراً لنشاط الهاغاناه في مطلع سنة ١٩٤٨. ومع انتهاء الانتداب البريطاني، كان طرد الفلسطينيين عنوة من الأراضي التي استولت عليها الهاغاناه، قد أصبح نموذجاً راسخاً شارك مجنّدو "ماحال" في إرسائه.

تعزيز سلاح الجو الإسرائيلي وفرقة المدرعات

في ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨، أعلنت إسرائيل قيام الدولة. وفي اليوم التالي ـ تاريخ انتهاء الانتداب رسمياً ـ نشرت البلاد العربية المجاورة قوات تدخّل سريع نظامية في فلسطين. وأتمّت الحكومة الإسرائيلية الجديدة الإجراءات الرسمية لإنشاء سلاح الجو الإسرائيلي وتحولت نحو ترسيخ السلطة الكاملة على جميع المنظمات العسكرية الصهيونية من خلال إنشاء قوات الجيش الإسرائيلي الموحدة.[٦٩]

وجاء توسيع سلاح الجو الإسرائيلي رداً على تطوّرات كان يمكن أن تشكّل تحدياً خطراً للهاغاناه بعد انضمام قوات الدول العربية إلى القتال. فقبل ذلك، كان العنصر الجوي في القتال محصوراً بطرف واحد، وطوال أشهر، وعلى الرغم من القيود التي فرضها البريطانيون على النشاطات الصهيونية، نفّذت القوات الجوية في الهاغاناه، بواسطة طائراتها الخفيفة المجهزة بالرشاشات والعبوات الناسفة المقذوفة باليد، مهمات قتالية مع إفلات تام من العقاب، وتعاونٍ فضفاض مع القوات البرية في الهاغاناه.[٧٠] لكن بعد ١٥ أيار/مايو، كان في استطاعة طائرات سلاح الجو الملكي المصري إسقاط قاذفات القنابل الإسرائيلية المرتجلة، حتى إن سلاح الجو الإسرائيلي، ولفترة من الوقت، اضطُر إلى القيام بعملياته ليلاً.[٧١] بل إن مصر تمكّنت من ارتجال قاذفات عبوات ناسفة. وفي ١٨ أيار/مايو، تعرضت محطة الحافلات المركزية في تل أبيب لهجوم جوي أسفر عن مقتل ٤٢ شخصاً.[٧٢]

ولم يدم طويلاً انكشاف إسرائيل جوياً، إذ على الرغم من أن الأمم المتحدة فرضت حظراً عسكرياً على فلسطين، فإن تدفق السلاح والأشخاص إلى البلد من الخارج استمر طوال سنة ١٩٤٨، عبر التسلل خلسة والتعويل على الإهمال المتعمد (أو التعاون المدفوع الثمن) من السلطات المعنية في مختلف أنحاء العالم. وكانت محطة النقل الأساسية في عمليات الشراء الالتفافية هذه مهبطاً سابقاً لطائرات القوات الجوية الألمانية في زاتيك في تشيكوسلوفاكيا، وفي غضون أيام من انتهاء الانتداب، وصلت مقاتلات "مسرشميت" ألمانية معدَّلة اشترتها الهاغاناه عبر زاتيك، وسرعان ما نُشرت لصد الغارات المصرية. وبحلول أواخر أيار/مايو، بات سلاح الجو الإسرائيلي، قادراً ليس فقط على قصف القرى الفلسطينية (مثلاً أسدود واللد والرملة ورام اللّـه) وقوات الدول العربية في فلسطين، بل العاصمة الأردنية عمّان أيضاً؛ وفي ١٠ – ١١ حزيران/يونيو، أُلقي طنّان من المتفجرات على دمشق.[٧٣]

وانطلاقاً من زاتيك، حيث كان عدد من المتطوعين الأميركيين يعملون في أغلبيتهم تحت رعاية السلطات التشيكية، فإن مجموعة متنوعة من طائرات النقل، ضمت العديد من طائرات "سي ـ ٤٦ كومندوس" التي تم شراؤها من إدارة الأصول الحربية الأميركية، أنشأت جسراً جوياً إلى فلسطين.[٧٤] وعشية عملية نحشون، بدأت شحنات الأسلحة المرسلة عن طريق الجو تصل، وقد استمر هذا الأمر طوال الصيف (وكانت الطائرات تقلّ على متنها مجنّدين جدداً في معظم الأحيان).

وبعد أقل من شهر من بدء الاشتباكات العسكرية بين الجيوش النظامية، والتي لم

تساهم كثيراً في الحد من طرد الفلسطينيين من أرضهم، دخلت الهدنة الأولى بين إسرائيل والقوات العربية النظامية موضع التنفيذ في ١١ حزيران/يونيو، واستمرت حتى ٨ تموز/يوليو. وقد أتاحت الهدنة أمام إسرائيل فرصة كي تُطلق موجة جديدة من إعادة التنظيم العسكري، جرى خلالها مركزة القيادة أكثر فأكثر بإمرة بن ـ غوريون. وفي الوقت نفسه، استُخدمت معدّات جديدة ومجنَّدون جدد من "ماحال" لتعزيز القوة الجوية الإسرائيلية وإرساء الأساس لسلاح مدرعات إسرائيلي.

ومع بداية الهدنة، استعد سلاح الجو الإسرائيلي لإيجاد سيطرة جوية نهائية، ومن الأسلحة الكثيرة التي حصل عليها خلال الهدنة ثلاث قاذفات قنابل بي ـ ١٧ "فلاينغ فورترس" تم شراؤها بناء على مبادرة من العميل الأميركي في "ماحال"، آل شويمر (الذي أسس لاحقاً شركة "إسرائيل إيركرافت إندستريز" المتخصصة بتكنولوجيا الطيران)، وجرى تجهيزها للقتال بقيادة المجنَّد في "ماحال"، راي كورتز، الذي كان قائداً لسرب "بي ـ ١٧" في سلاح الجو الأميركي خلال الحرب العالمية الثانية.[٧٥] وقد استُخدمت الطائرات التي كان يقودها محاربون متمرّسون، والتي باتت تشمل مقاتلات وقاذفات قنابل ثقيلة، في مختلف أنحاء فلسطين، وتسبّبت بكثير من القتل والدمار.[٧٦]

وفي غضون ذلك، أنشأ الجيش الإسرائيلي سلاح مدرعات كان لمجنّدي "ماحال" حضور بارز فيه، فقد أسس أول وحدة مدرعات نظامية ـ اللواء الثامن ـ وعزز اللواء السابع بمعدات أثقل. وتألف اللواء الثامن من كتيبة دبابات وكتيبة كومندوس (الكتيبة ٨٢ والكتيبة ٨٩ على التوالي)، وضمت كتيبة الدبابات ٨٢، بصورة أساسية، مجنّدين من بريطانيا وجنوب إفريقيا وروسيا، ونُظِّمت في سريّتين، واحدة "إنجليزية" والثانية "روسية".[٧٧] ووُضِع اللواء السابع المعزز ـ الذي يقول عنه مقدّم إسرائيلي إنه "أصبح التشكيلة المدرعة الأبرز في الجيش الإسرائيلي في الحروب اللاحقة" ـ بقيادة دونكلمان، وتولى مجنّدون من "ماحال" مناصب متعددة فيه.[٧٨] وفي الحقيقة، فإن اللواء السابع، وعلى الأرجح، ضمّ أكبر تركز من مجنّدي "ماحال" الناطقين باللغة الإنجليزية بين مختلف الوحدات خارج سلاح الجو الإسرائيلي، إذ بلغ عددهم ١٧٠ مجنداً خلال الصيف، و٣٠٠ مجند تقريباً بحلول الربيع.[٧٩]

في ٩ تموز/يوليو، انهارت الهدنة الأولى، ودار قتال واسع النطاق لأسبوع ونصف أسبوع قبل أن يبدأ وقف إطلاق نار ثانٍ كان أكثر هشاشة. وهذه المرحلة التي انقضت بين الهدنتين، تُعرف في التأريخ الإسرائيلي بـ "الأيام العشرة"، وتميزت بتقدم سريع للقوات الإسرائيلية في جميع الأماكن ساعد فيه عناصر "ماحال" على حشد المعدات الأثقل وتسخيرها لغزو المجتمعات الفلسطينية وطرد سكانها منها.

من اللد إلى صفورية

كان المكوِّنان الأساسيان في هجوم "الأيام العشرة" (٩ – ١٨ تموز/يوليو) هما "عملية داني" في وسط فلسطين و"عملية ديكِلْ" في الشمال، وقد شاركت وحدات مدرعة وجوية تضم أعداداً كبيرة من مجنّدي "ماحال" في العمليتين. ودكّت عملية داني الحدود الوليدة للضفة الغربية انطلاقاً من الساحل في سلسلة من الهجمات الواسعة النطاق وعمليات الطرد القاسية التي استهدفت بلدتَي اللد والرملة الفلسطينيتين، أمّا عملية ديكِلْ فأدت إلى توسيع القطاع الساحلي الذي تسيطر عليه إسرائيل في الشمال وصولاً إلى الجليل الأوسط، واحتلت الناصرة المحتلة. ونُفّذت العمليتان بعيداً جداً عن حدود الدولة اليهودية كما هو منصوص

عنها في القرار ١٨١.

وأُطلق في البداية على عملية داني اسم "عملية ميكي" تكريماً للكولونيل الأميركي ماركوس الذي كان قُتل في الشهر السابق، بيد أنه جرى تغيير الاسم وسط المخاوف من احتمال أن يكون جرى تسريبه.[٨٠] وكان هدف العملية الأساسي هو الاستيلاء على اللد والرملة بعد أن كان سكانهما قد نجحوا، حتى ذلك الوقت، في الدفاع عنهما (كانوا يتحركون بدعم محدود من الجيوش العربية النظامية)، فحُشدت قوة مركبة كبيرة لشنّ الهجوم، ضمّت اللواء (المدرع) الثامن (مع كتيبتَيه ٨٢ و٨٩)، ووحدات من أربعة ألوية أُخرى، ومجموعة من الوحدات الجوية والمدفعية، وقد عملت هذه القوة بقيادة يغآل ألون. وكان اللواء الثامن يشكّل جزءاً من الذراع الشمالية لكماشة عسكرية هدفت إلى تطويق البلدتين وفصلهما عن الضفة الغربية والاستيلاء على هذه المنطقة المكتظة بالسكان.

وكانت بلدة اللد التي ازداد عدد سكانها أكثر من الضعف ليصل إلى ٥٠,٠٠٠ نسمة جرّاء تدفّق اللاجئين من القرى المحتلة المجاورة، قد تصدّت للهجمات السابقة. ويروي سبيرو منيّر، أحد المتطوعين في ميليشيا البلدة: "كان الناس واعين لخطورة الوضع، كما أنهم، بعد الذي جرى في المدن الأُخرى، كانوا يدركون تماماً أن هذه الحرب ستحدد ما إذا كانوا سيتمكنون من البقاء في مدينتهم ووطنهم."[٨١] بيد أن القوات النظامية الوحيدة التي نُشرت للدفاع عن اللد (والرملة) اقتصرت على ١٢٥ جندياً من سريّة المشاة الخامسة في الفيلق العربي الشرق الأردني ـ ولم يكن ذلك تعزيزاً كافياً لدعم مدافعين غير نظاميين في مواجهة قوة هجومية مؤلفة من ٨٠٠٠ عنصر بحسب تقديرات وليد الخالدي.[٨٢]

وبدأ الهجوم بعد هبوط الليل في ٩ تموز/يوليو مع تقدّم القوات البرية وتعرّض اللد والرملة لقصف جوي مركّز استمر، إلى جانب القصف المدفعي، حتى ١٠ تموز/يوليو.[٨٣] وخلافاً للخطة الأولية، فإن الكتيبة ٨٩ (كتيبة الكومندوس) حققت تقدّماً أسرع من دبابات الكتيبة ٨٢، إذ إنها اخترقت دفاعات اللد بواسطة رتل من سيارات الجيب والسيارات نصف المجنزرة في غارة مدمرة في ١١ تموز/يوليو لقي فيها ٢٠٠ فلسطيني مصرعهم.[٨٤] وسرعان ما انسحبت الفرقة التابعة للفيلق العربي، وجرى اجتياح البلدة واحتلالها. وفي صباح اليوم التالي، نفّذت قوات الجيش الإسرائيلي مجزرة كبرى أُخرى أسفرت عن مقتل نحو ٢٥٠ فلسطينياً، بينما هي لم تخسر سوى ثلاثة إلى أربعة جنود على يد المقاومة الفلسطينية.[٨٥] وقد علّق يغآل ألون متباهياً: "تعلّمتْ الرملة الدرس الذي لم يذهب هدراً، ففي ١٢ تموز/ يوليو، استسلمت لقوات الجيش الإسرائيلي."[٨٦] وجرى طرد سكان البلدتين نحو الشرق في موجات هائلة ضمت عشرات آلاف الأشخاص. ويُقدِّر المؤرخ عارف العارف الذي أجرى مقابلات مع اللاجئين بعيد الطرد، أن ٣٥٠ شخصاً بينهم لقوا حتفهم جرّاء الحرّ والعطش خلال توجههم القسري سيراً على الأقدام نحو الضفة الغربية.[٨٧]

صحيح أن كتيبة الدبابات ٨٢ (مع "فرقتها الإنجليزية") لم تؤدِّ دوراً شائناً بقدر الكتيبة ٨٩، إلاّ إنها شاركت في الاحتلال وطرد السكان وتدمير القرى في المنطقة، وعلى الأقل في بعض الانتهاكات الموثَّقة التي حدثت لاحقاً.[٨٨] ومع أنه من المستبعد أن تكون السجلات المستندة إلى روايات المشاركين كاملة في هذا الإطار، إلاّ إنه من غير المعقول الافتراض أن مجنّدي "ماحال" الذين كانوا موجودين في أثناء عمليات القتل والطرد التي شُنَّت خلال الهجوم كانوا مجرد شهود.[٨٩] فكتابات الصحافي الإسرائيلي الذي حارب في الكتيبة ٨٢، عاموس كينان، والتي تدور حول تفشّي

الاغتصاب عقب عملية داني ـ "في الليل، أولئك الذين لم يكونوا قادرين بيننا على ضبط أنفسهم كانوا يتوجهون إلى مجمعات السجن لمضاجعة النساء العربيات" ـ توحي بأن هذه الوحدة التي ضمت عدداً كبيراً من مجنّدي "ماحال" كانت على صلة بهذه الجرائم.[٩٠]

وفي هذه الأثناء، في الشمال، شنّت الطائرات الإسرائيلية، بدءاً من ليل ٨ – ٩ تموز/يوليو، غارات متواصلة استهدفت القرى الواقعة في الجليل الأوسط في قضاء الناصرة (الذي لم يكن يدافع عنه سوى ميليشيات من أبناء القرى وقوات من جيش الإنقاذ الذي كان يتألف بكامله من متطوعين).[٩١] وفي الليلة التالية، بدأت وحدات اللواء السابع، بدعم من الكتيبة ٢١ في لواء كرملي، عملية ديكِل، فاستولت على موقع لجيش الإنقاذ في تل كسوان، واحتلت قرية كويكات التي كان عدد سكانها يزيد على ١٠٠٠ نسمة.[٩٢] وروى أحد أبناء القرية ما يلي: "استيقظنا على أعلى ضجيج نسمعه في حياتنا، قذائف تنفجر ونيران مدفعية... أصيبت القرية بكاملها بالهلع... كانت النساء يصرخن، والأولاد يبكون... بدأ القرويون، في معظمهم، يهربون في ثياب النوم"،[٩٣] وقد لقي شخصان مصرعهما وأصيب اثنان آخران بجروح خلال القصف. ولاحقاً، علّق قائد سرية في الكتيبة ٢١ قائلاً: "لا أعرف ما إذا كانت المدفعية الرابضة فوق القرية تسبّبت بسقوط ضحايا، لكن التأثير النفسي تحقّق، وهرب غير المقاتلين في القرية قبل أن نبدأ الهجوم."[٩٤] وفعلاً، فإن نيران مدافع الهاون الثقيلة كانت طوال الهجوم، تسبق احتلال القرى ـ ولم يكن هذا بالأمر المفاجئ نظراً إلى الخبرة الخاصة التي يتمتع بها دونكلمان، قائد اللواء السابع.[٩٥]

وفي ١٣ تموز/يوليو، أطلق اللواء السابع الهجوم الكبير في اتجاه الناصرة، فاستولى على مدينة شفاعمرو في ١٤ تموز/يوليو (فيما يمكن اعتباره المثل الأكثر دراماتيكية للتعاون الدرزي مع القوات الصهيونية في سنة ١٩٤٨)،[٩٦] وبعد السيطرة على عدد من القرى الأصغر في الجوار، تقدّم اللواء السابع في اتجاه الجنوب الشرقي انطلاقاً من شفاعمرو لاحتلال الناصرة في ١٦ تموز/يوليو.

وثمة إثباتات أكيدة لاعتراض دونكلمان على طرد الفلسطينيين من الناصرة، فوفقاً لبن ـ غوريون، أصدر موشيه كرمل، قائد الجبهة الشمالية، أمراً بـ "اقتلاع جميع السكان من الناصرة"،[٩٧] فطلب دونكلمان ـ الذي فكّر ملياً في مصير "أحد المقامات الأكثر قدسية في العالم المسيحي"، وتخوّف من "التداعيات الدولية الحادة" للإقدام على عمل متسرع[٩٨] ـ الحصول على إذن من سلطة أعلى. وهكذا طلب المسؤول المباشر عنه من هيئة الأركان العامة في الجيش الإسرائيلي إصدار حكم في هذا الصدد: "قولوا لي على الفور، وبصورة عاجلة، هل نطرد السكان من مدينة الناصرة؟ بالنسبة إليّ، يجب طرد الجميع ما عدا رجال الدين."[٩٩] فوضع بن ـ غوريون فيتو على الطرد، وبقي السكان في المدينة.

بيد أن الهواجس التي راودت دونكلمان في قضية الناصرة (والتي انبثقت على ما يبدو من المخاوف من التداعيات الدبلوماسية لطرد المسيحيين) لم تحل دون مشاركته في طرد الفلسطينيين من أراضيهم في أماكن أخرى. فقبيل الهجوم على الناصرة مثلاً، قاد دونكلمان ولواؤه السابع عملية السيطرة على قرية صفورية ذات الأغلبية المسلمة، والتي كان ٢٥٠٠ لاجئ من شفاعمرو قد انضمّوا إلى سكانها الذين يزيد عددهم على ٤٠٠٠ نسمة. وينقل المؤرخ نافذ نزّال عن أحد القرويين الذي كان أمين الإمدادات والتموين في ميليشيا صفورية، وصفه الهجوم الليلي في ١٥ – ١٦ تموز/يوليو:

حلّقت ثلاث طائرات يهودية فوق القرية، وألقت براميل ملأى بالمتفجرات والشظايا

المعدنية والمسامير والزجاج. كانت أصواتها عالية جداً وكانت مزعجة جداً... وقد هزّت القرية بأكملها، وحطمت النوافذ والأبواب، وتسبّبت بمقتل بعض القرويين أو إصابتهم بجروح، وبنفوق عدد كبير من المواشي في القرية. توقّعنا حرباً، لكن لم نتوقع حرباً جوية وبواسطة الدبابات.[١٠٠]

فضلاً عن ذلك استهدفت القوات البرية المتقدِّمة القريةَ بنيران المدفعية، فهرب معظم سكانها تحت ضغط هذه الهجمات (أمّا مَن مكثوا فقد طُردوا منها في نهاية المطاف).[١٠١]

وفي الواقع، لم يكن اللواء السابع بقيادة دونكلمان نموذجاً لضبط النفس قط، إذ إنه في اللحظة الملائمة، تموضع إلى جانب الكتيبة ٨٩ ليصبح من القوات القتالية الأشد قسوة في تلك الفترة. ويكتب إيلان بابِه: "في عدد كبير من الروايات التاريخية الشفوية الفلسطينية التي برزت الآن إلى الواجهة، يظهر عدد قليل من أسماء الألوية، بيد أن اللواء السابع يُذكَر باستمرار، وبجانبه صفات مثل 'إرهابي' و'بربري'."[١٠٢] صحيح أن عملية ديكِل تسبّبت بدمار واسع، إلاّ إن اللواء السابع كان يُحضّر لما هو أسوأ بعد.

تطهير جوي في الجنوب، "قتل جماعي" في الشمال

لقد استمرت مشاركة "ماحال" الناشطة في مكونات متعددة من المنظومة العسكرية الإسرائيلية الناشئة إلى حين توقيع اتفاقات الهدنة في سنة ١٩٤٩، والتي أرست حدود إسرائيل التي فرضها الأمر الواقع حتى حزيران/يونيو ١٩٦٧. وفي مثال لذلك، نتوقف عند حدثين مهمين بين تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨، هما: مشاركة سلاح الجو الإسرائيلي في فرض الواقع المتعلق بالأراضي والديموغرافيا في قطاع غزة كما نعرفه الآن، ومشاركة اللواء السابع في غزو الجليل الأعلى.

ففي الجنوب، كانت القوات المصرية لا تزال تسيطر في نهاية الصيف على مساحة مهمة من الأراضي التي تمتد على طول الساحل الفلسطيني وصولاً إلى أسدود، وتتصل بالضفة الغربية من خلال ممر يقود إلى منطقة الخليل (حيث كانت إسرائيل تسيطر في جنوبها الشرقي على الجزء الأكبر من النقب). وقد هدد هذا الوضع، إلى جانب مقترحات الأمم المتحدة أن تتخلى إسرائيل عن مطالباتها بضم النقب في مقابل ضم الجليل، بوقف التوسع الإسرائيلي في الجنوب. وكان رد إسرائيل القيام بشنّ هجوم واسع النطاق في أواسط تشرين الأول/أكتوبر، وقد دكّت "عملية يوآف" قضاء غزة الكبير وقلّصت مساحته وحوّلته إلى قطاع غزة بأبعاده الحالية، كما تسبّبت بزيادة سكان القطاع ثلاثة أضعاف من خلال التطهير الواسع النطاق للمناطق المجاورة.[١٠٣] وفي هذه العملية، استُخدم سلاح الجو الإسرائيلي ـ الذي كان يطغى عليه عناصر الـ "ماحال" ـ على نطاق لم يسبق له مثيل.

وبلغت مشاركة القوات الجوية في الحملة ذروتها بين ١٥ و١٩ تشرين الأول/ أكتوبر عندما شُنَّت هجمات بلا هوادة على المراكز السكنية الفلسطينية والقوات المصرية على السواء. فقد ألقت القاذفات الإسرائيلية ١٥١ طناً من المتفجرات، بما في ذلك قنابل النابالم،[١٠٤] وأدت الهجمات الجوية (والبحرية) إلى نزوح السكان بأعداد كبيرة عن عدة أماكن جرى الاستيلاء عليها في نهاية المطاف (مثل المجدل)، فضلاً عن أن السكان في قطاع غزة، مثلما نعرفه الآن، تعرضوا لقصف لا يقل همجية.[١٠٥] وبعد ذلك حوّل سلاح الجو الإسرائيلي اهتمامه نحو الشمال حيث ساعد على استكمال غزو الجليل من دون أن يلقى أي مواجهة في الجو.

وفي أثناء ذلك، كان الجزء الأكبر من شمال فلسطين أصبح خاضعاً للسيطرة الإسرائيلية، لكن ظلّ هناك جيب مقاوم في الجليل الأعلى، هو الذي استهدفته "عملية حيرام". فبعد أسبوع من القصف الجوي المركّز للقرى في الجيب المتبقي (اعتباراً من ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر)، أطلق اللواء السابع العملية البرية الأساسية، وشن على مدى ثلاثة أيام هجمات اتسمت على نطاق واسع، بطرد السكان وارتكاب المجازر والاغتصاب.

وتركزت الخطة التي وُضِعت لعملية "حيرام" على قرية سعسع الواقعة عند مفترق طرق ذي أهمية استراتيجية خاصة جداً، إذ إن مخطّطاً بارزاً في الهاغاناه كان نصح دونكلمان في مرحلة سابقة بما يلي: "إذا سيطرتم على هذا المفترق، تسيطرون على الجليل بأكمله!"[١٠٦] وبدءاً من ليل ٢٨ – ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر، شنّت وحدات من أربعة ألوية الهجوم، بينما كانت الكتائب الثلاث التابعة للواء السابع بإمرة دونكلمان تتحرك في الجبهة الشمالية الشرقية بشكل كماشة عسكرية هدفت إلى الاستيلاء على سعسع، وإلى تطويق الجزء الأكبر من "الجيب" المقاوم نحو الجنوب، وسرعان ما احتل اللواء السابع الذي تقدّم في اتجاه الشمال الغربي انطلاقاً من صفد، قرى قديتا وميرون والصفصاف والجش.[١٠٧] وينقل نافذ نزّال رواية امرأة فلسطينية لما جرى بعد القصف الليلي واحتلال الصفصاف في ٢٩ – ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر:

> بعدما اصطففنا، أمر بعض الجنود الإسرائيليين أربع فتيات بمرافقتهم لحمل المياه إلى الجنود، إلاّ إنهم اقتادوهن إلى منازلنا الخالية واغتصبوهن. كما أنهم عصبوا عيون ٧٠ رجلاً من رجالنا وأطلقوا عليهم النار وأردوهم قتلى الواحد تلو الآخر أمام أنظارنا، ثم أخذوا جثثهم وألقوا بها على الأسمنت عند نبع القرية ووضعوا رملاً فوقها.[١٠٨]

وتعرضت قرية الجش أيضاً لأعمال قتل ونهب واسعة النطاق.[١٠٩]

وبعد هذه الغزوات الأولى، انقسم اللواء السابع، فاحتلت الكتيبة ٧١ الرأس الأحمر والريحانية وعلما وديشوم، بينما تقدّمت الكتيبتان ٧٢ و٧٩ نحو الغرب لاحتلال سعسع (حيث ارتكبتا مجدداً "مجزرة جماعية"، بحسب يسرائيل غاليلي، نائب رئيس القيادة القطرية للهاغاناه سابقاً)،[١١٠] ثم هاجمتا مجموعة نقاط على الحدود مع لبنان، واستولتا على سلسلة من القرى الفلسطينية وصولاً إلى المالكية في أقصى الشرق، ونفّذتا غزوات عبر الحدود وصولاً إلى نهر الليطاني في لبنان. وارتكبت هاتان الكتيبتان مجزرة أُخرى في صَلْحة، وفي هذا الشأن، يكتب بِني موريس أن يوميات المسؤول عن الصندوق الوطني اليهودي، يوسف نحماني، "تشير إلى مقتل '٦٠ – ٧٠' رجلاً وامرأة بعدما 'رفعوا علماً أبيض'،"[١١١] وأن التقارير تتحدث عن تسبّب عملية حيرام بطرد أكثر من ٥٠,٠٠٠ لاجئ من فلسطين.[١١٢]

ومع مشارفة العملية على نهايتها، كان دونكلمان، في النقاشات الداخلية في الجيش الإسرائيلي، يُعرب باستمرار عن تحفّظه حيال طرد المسيحيين،[١١٣] إلاّ إنه أفلت هو والمئات من مجنّدي "ماحال" الخاضعين لإمرته من العقاب بعدما شنّوا حملة أسفرت عن عمليات قتل جماعي في قرى ذات أغلبية مسلمة وطرد سكانها إلى لبنان.

خاتمة

إن سجلّ مجنّدي "ماحال" يشكّل جزءاً مهماً من تاريخ مشاركة اليهود من مختلف القارات في المشروع الصهيوني منذ بدايته حتى الآن، وهذا التاريخ لا يمكن فصله عن عمليات الاستعمار والطرد من الأراضي التي أدت إلى

دمار فلسطين. وفي العقود الأخيرة، تحقق تقدّم كبير في تحدي الرواية "البطولية" للمجهود الحربي الصهيوني لسنة ١٩٤٨، فعلى ضوء الأبحاث المتوافرة الآن، يتعذر تجاهل أعمال الطرد والفظائع الأُخرى التي طبعت عدداً كبيراً من العمليات التي شارك فيها هؤلاء المجنّدون.

وفي الواقع، وإزاء تواصل السياسات "الديموغرافية" الإسرائيلية القسرية، وبروز مقترحات طرد الفلسطينيين من جديد في الخطاب السياسي الإسرائيلي خلال العقد المنصرم، فإنه لا بد من إجراء تدقيق جدّي في هذا التاريخ يذهب أبعد من الممارسة البحثية.[١١٤] ففي سنة ١٩٤٨، شكّل انخراط الـ "ماحال" في القتال جزءاً من مشهد دولي أفضى إلى تهجير الفلسطينيين وطردهم بواسطة القوة العسكرية الإسرائيلية، وهذا التاريخ من شأنه أن يذكّرنا بالحاجة إلى بناء مناخ دولي أكثر عرقلة لمثل هذه السياسات في الأعوام المقبلة. ■

المصادر

١ David Bercuson, *The Secret Army* (Toronto: Lester and Orpin Dennys, 1983), p. 233.

٢ Craig Weiss and Jeffrey Weiss, *I Am My Brother's Keeper: American Volunteers in Israel's War of Independence, 1947-1949* (Atglen: Schiffer Publishing, 1998), p. 5.

٣ Ibid., p. 21.

٤ انظر مثلاً: Ben Dunkelman, *Dual Allegiance: An Autobiography* (Toronto: Macmillan of Canada, 1976); Harold Livingston, *No Trophy, No Sword: An American Volunteer in the Israeli Air Force During the 1948 War of Independence* (Chicago: Edition Q, Inc., 1994); Gordon Levett, *Flying Under Two Flags: An Ex-RAF Pilot in Israel's War of Independence* (London: Frank Cass, 1994); Boris Senior, *New Heavens: My Life as a Fighter Pilot and a Founder of the Israeli Air Force* (Washington: Potomac Books, 2005); A. Joseph Heckelman, *American Volunteers and Israel's War of Independence* (New York: Ktav Publishing House, 1974).

٥ Dunkelman, op. cit., p. xii.

٦ Netanel Lorch, *Israel's War of Independence, 1947-1949* (Hartford: Hartmore House, 2nd ed., 1968), p. 388.

٧ Bercuson, op. cit., p. xiii; Benny Morris, *1948: A History of the First Arab-Israeli War* (New Haven and London: Yale University Press, 2008), p. 85.

٨ Yaacov Markovitzky, *Mahal: Overseas Volunteers in Israel's War of Independence,* Internet Edition (Tel Aviv: Ministry of Education Israel Information Center, 2007), p. 7.

٩ يشير آفي شلايم إلى أن عددهم بحلول كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨، "وصل في ذروته إلى ٩٦,٤٤١." انظر:
Avi Shlaim, "Israel and the Arab Coalition in 1948", in *The War for Palestine: Rewriting the History of 1948,* edited by Eugene L. Rogan and Avi Shlaim (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), p. 81.
ويسجل أميتزور إيلان أن عديد "فرقة القتال الرسمية" الإسرائيلية بلغ ٨٨,٠٠٠ عنصر في سنة

١٩٤٨. انظر:
Amitzur Ilan, *The Origin of the Arab-Israeli Arms Race: Arms, Embargo, Military Power and Decision in the 1948 Palestine War* (New York: New York University Press, 1996), p. 67.
وهذا المصدر مذكور في:
David Tal, *War in Palestine 1948: Strategy and Diplomacy* (London: Routledge, 2004), p. 5.
ولمزيد من الأرقام، انظر: Walid Khalidi, *From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem Until 1948* (Washington: Institute for Palestine Studies, 2005), pp. 861-866.

١٠ David Ben-Gurion, *Israel: A Personal History* (New York: Funk & Wagnalls/Sabra Books, 1971), p. 267.

١١ انظر وَصْف آفي شلايم للرواية التي روّجها التأريخ الصهيوني الرسمي، في:
Shlaim, op. cit., p. 79.
كما أن الروايات التي وردت على لسان عناصر في "ماحال"، والدراسات المركزة على غرار تلك المذكورة آنفاً، كمّلت المعالجة الأكثر تشتّتاً للموضوع، والتي قام بها المؤرّخون العسكريون الإسرائيليون. انظر مثلاً: Lorch, op. cit.; Ezer Weizman, *On Eagles' Wings: The Personal Story of the Leading Commander of the Israeli Air Force* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1976); David Eshel, *Chariots of the Desert: The Story of the Israeli Armored Corps* (London: Brassey's Defense Publishers, 1989); Uri Milstein, *History of Israel's War of Independence,* translated by Alan Sacks (New York: University Press of America, 1998).

١٢ تستند هذه المقالة إلى الدراسات المتوفرة عن طابع التحرك العسكري الصهيوني ضد الفلسطينيين وتأثيره، ولا سيما الكتب التالية:
Nafez Nazzal, *The Palestinian Exodus from Galilee, 1948* (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1978); Walid Khalidi, ed., *All that Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948* (Washington: Institute for Palestine Studies, 1992); Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004); Ilan Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine* (Oxford: Oneworld Publications, 2006).
وهذه المقالة توسع جزئياً مادة نشرها موقع Znet الإلكتروني. انظر:
"60 Years Later: Canada and the Origins of the Israel-Palestine Conflict", *ZNet*, 4 May 2008, accessed at: www.zmag.org/znet/viewArticle/17552.

١٣ للاطلاع على تحليل لهذه الآلية، انظر: Khalidi, *From Haven to Conquest*, op. cit., p. x1viii.

١٤ Ernest Stock, *Partners and Pursestrings: A History of the United Israel Appeal* (New York: University Press of America/Jerusalem Center for Public Affairs, 1987), pp. 35, 127.

١٥ لمزيد من التفصيلات، انظر: Alysa Dortort and Daniel Elazar, *Understanding the Jewish Agency: A Handbook* (Jerusalem: Jerusalem Center for Public Affairs, 1985).

١٦ انظر مثلاً: David Ben-Gurion, "Britain's Contribution to Arming the Haganah", in Khalidi, *From Haven to Conquest*, op. cit., pp. 371-374.

١٧ لقد كان هذا التفضيل واضحاً جداً في سنة ١٩٤٨. انظر: Yigal Allon, "Learning from Experience", in *The Making of Israel's Army,* edited by Yigal Allon (London: Vallentine, Mitchell & Co.), pp. 222-224.

١٨ Nur Masalha, *Expulsion of the Palestinians: The Concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882–1948* (Washington: Institute for Palestine Studies, 1992).

كذلك، فإن كاتب سيرة بن ـ غوريون الذاتية المتعاطف معه، شَبتاي تيفيت، سجّل أيضاً تصريحات بن ـ غوريون الفظة التي تؤيد الطرد، في:

Shabtai Teveth, Ben-Gurion and the Palestinian Arabs: From Peace to War **(Oxford: Oxford University Press, 1985).**

إذ ورد مثلاً: "يجب أن نطرد العرب ونحل مكانهم" (ص ١٨٩).

١٩ **Masalha, op. cit., pp. 107-108.**

٢٠ **Teveth, op. cit., p. 193.**

وبشأن هذا النقاش، انظر:

Walid Khalidi, "Revisiting the UNGA Partition Resolution", in ***The Israel/Palestine Question: A Reader,*** **edited by Ilan Pappé (New York: Routledge, 2007), p. 99.**

٢١ **Allon Gal,** ***David Ben-Gurion and the American Alignment for a Jewish State*** **(Jerusalem: The Magnes Press, 1991), p. 40.**

٢٢ **Ibid., p. 201.**

٢٣ **Ibid., p. 154.**

وذلك استناداً إلى مراجعة للصحافة الصهيونية الأميركية خلال الفترة ١٩٣٠ – ١٩٤١.

٢٤ **Stock, op. cit., p. 127.**

٢٥ إن العمل الكلاسيكي بشأن هذا الموضوع (ولو أنه غير متفق كلياً مع قواعد النقد النزيه)، هو:

Leonard Slater, ***The Pledge*** **(New York: Simon and Schuster, 1970).**

٢٦ **Ricky-Dale Calhoun, "Arming David: The Haganah's Illegal Arms Procurement Network in the United States, 1945-1949",** ***Journal of Palestine Studies, 144, vol. XXXVI,*** **no. 4 (Summer 2007), pp. 22-32.**

٢٧ **Gal, op. cit., p. 202.**

٢٨ **Amikam Nachmani,** ***Great Power Discord in Palestine: The Anglo-American Committee of Inquiry into the Problems of European Jewry and Palestine, 1945–1946*** **(London: Frank Cass, 1987), p. 256.**

٢٩ **Tal, op. cit., p. 24.**

٣٠ **Ibid., p. 31.**

٣١ كان آلاف اليهود من فلسطين قد التحقوا بالجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية.

٣٢ **Bercuson, op. cit., pp. 53, 72.**

وفي نيسان/أبريل، أُدرِجَت نشاطات اللجنة ضمن سلطة دائرة الطاقة البشرية في الهاغاناه.

٣٣ **Ibid., p. 36.**

٣٤ **Ibid., p. 53; Markovitzky, op. cit., p. 16.**

ويقول بركوسون إن التجنيد في جنوب إفريقيا كان في البداية خارج إطار البنية الدولية الأساسية.

٣٥ **Dunkelman, op. cit., p. 151; Bercuson, op. cit., p. 61.**

٣٦ **Hannah Torok-Yablonka, "The Recruitment of Holocaust Survivors during the War of Independence",** ***Journal of Israeli History, vol.*** **13, no. 1 (1992), p. 43.**

٣٧ **Brian Cull, Shlomo Aloni, David Nicolle,** ***Spitfires over Israel: The First Authoritative Account of Air Conflict During the Israeli War of Independence, 1948–1949*** **(Boston, MA: Grub Street, 1994), pp. 287-288.**

٣٨ Lorch, op. cit., p. 285.

٣٩ انظر مثلاً: Bercuson, op. cit., pp. 58-59, 99.

٤٠ إن بعض المجنّدين الذين صنفوا بأنهم "ماحال" وصلوا في وقت سابق، وانضم بعضهم إلى الهاغاناه والبالماح على متن السفن التابعة لسلاح البحر في تحدٍّ للقيود البريطانية على الهجرة، بينما ساهم آخرون في تطوير سلاح الجو في الهاغاناه.

٤١ Eshel, op. cit., p. 17; Bercuson, op. cit., p. 183; Lorch, op. cit., p. 390.
أمّا نزّال في كتابه: Nazzal, op. cit., p. 22، فيشير إلى اللواء السابع بأكمله على أنه "الكتيبة الأنغلو ـ سكسونية".

٤٢ Bercuson, op. cit., p. 52.

٤٣ Lorch, op. cit., p. 222; Milstein, op. cit., p. 219.

٤٤ Weiss and Weiss, op. cit., p. 132.

٤٥ Cull, Aloni, Nicolle, op. cit., p. 71.

٤٦ Weizman, op. cit., p. 48; Senior, op. cit., p. 103.

٤٧ Bill Norton, *Air War on the Edge: A History of the Israel Air Force and its Aircraft Since 1947* (UK, Leicestershire : Midland Publishing, 2002) pp. 12-13.

٤٨ انظر: Lon Nordeen, *Fighters Over Israel* (New York: Orion Books, 1990), p. 14.

٤٩ لمزيد من التفصيلات، انظر: Khalidi, "Revisiting the UNGA Partition Resolution", op. cit.

٥٠ للاطلاع على النص الإنجليزي، انظر: Walid Khalidi, "Plan Dalet: Master Plan for the Conquest of Palestine", *Journal of Palestine Studies* 69, vol. XVIII, no. 1 (Autumn 1988), pp. 20-23.

٥١ Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, op. cit., p. 267 (Fn. 16).

٥٢ Masalha, op. cit., especially pp. 181-199; Khalidi, "Plan Dalet", op. cit.

٥٣ بشأن هذا النقاش يكتب غابريال بيتربرغ: "قد نسأل، أليس التطهير العرقي كنتيجة... مهماً، بحسب التجربة والاختبار، بقدر التطهير العرقي المتعمد؟" انظر:
Gabriel Piterberg, The Returns of Zionism: Myths, Politics and Scholarship in Israel (London: Verso, 2008), p. 56.

٥٤ Walid Khalidi, "Text of Plan Dalet (Plan D), 10 March 1948: General Section", *Journal of Palestine Studies* 69, vol. XVIII, no. 1 (Autumn 1988), p. 24.

٥٥ Gunther E. Rothenberg, *The Anatomy of the Israeli Army* (London: BT Batsford), p. 48.

٥٦ Yigal Allon, *Shield of David: The Story of Israel's Armed Forces* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1970), p. 196.

٥٧ انظر الخريطة في: Khalidi, *All that Remains...*, op. cit., p. 264.

٥٨ Senior, op. cit., p. 154; Dunkelman, op. cit., pp. 213-214.

٥٩ Dunkelman, op. cit., p. 213.

٦٠ Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, op. cit., p. 140.

٦١ Dunkelman, op. cit., p. 195.

٦٢ Ibid., pp. 224-225.

٦٣ Ben-Gurion, op. cit., p. 116.

٦٤ لمزيد من التفصيلات، انظر: Bercuson, op. cit., pp. 99-101.

٦٥ كان شمعون أفيدان، قائد لواء غفعاتي، قائداً عاماً لعملية نحشون. انظر: Morris, op. cit., p. 233.

٦٦ لقد أدّى الهجوم على عقير إلى تسارع نزوح ٣٠٠٠ فلسطيني تقريباً، وذلك بحسب تقرير في

صحيفة "نيويورك تايمز" ذكره الخالدي في: Khalidi, *All That Remains...*, op. cit., p. 360.

٦٧ Morris, op. cit., p. 256.

٦٨ إن روايات "ماحال" عن هذا الهجوم مفصّلة في: Bercuson, op. cit., pp. 102-106.

٦٩ تأسّس الجيش الإسرائيلي رسمياً في ٢٨ أيار/مايو، واستوعب الميليشيات التصحيحية. وقد تعاطف عدد كبير من مجنّدي ماحال مع التصحيحيين، وخصوصاً عندما تحرّك بن ـ غوريون ضد شحنة أسلحة بحرية لمنظمة الإرغون في حزيران/يونيو من أجل بسط سلطته الكاملة على القوات المسلحة الصهيونية (فيما يُعرف الآن بقضية ألْتَلينا). وكان رفض طاقم "ماحال" الجوي المطلق إطاعةَ الأوامر بالتأهب للتحرك ضد سفينة الإرغون، أحد الأسباب وراء اضطرار بن ـ غوريون إلى استعمال المدفعية انطلاقاً من الشاطئ. انظر: Cull, Aloni, Nicolle, op. cit., p. 176.
ولمزيد من التفصيلات بشأن "ماحال" وقضية ألْتَلينا ـ بمَن في ذلك المجنّدون الأجانب لدى الإرغون، مثل الكابتن الأميركي في ألْتَلينا وكابتن المدفعية الكندي ـ انظر:
Bercuson, op. cit., pp. 149-151; Weiss and Weiss, op. cit., pp. 143-152.

٧٠ للاطّلاع على أمثلة، انظر: Cull, Aloni, Nicolle, op. cit., p. 100; Eliezer Cohen, *Israel's Best Defense: The First Full Story of the Israeli Air Force* (New York: Orion Books, 1993), pp. 12, 14.

٧١ Cull, Aloni, Nicolle, op. cit., p. 148.

٧٢ Lorch, op. cit., p. 264.

٧٣ Cull, Aloni, Nicolle, op. cit., pp. 154, 165.

٧٤ Ibid., pp. 73, 149.

٧٥ Ibid., p. 173; Bishara A. Bahbah, "Israel's Private Arms Network", *MERIP Middle East Report,* no. 144 (Jan.-Feb. 1987), p. 9.

٧٦ استناداً إلى مقابلات مع اللاجئين الفلسطينيين، يخلص صالح عبد الجواد من جامعة بير زيت إلى أن "القصف الجوي كان واحداً من أكثر أنواع القتل فتكاً منذ تموز/يوليو ١٩٤٨، ولا سيما في جنوب فلسطين والجليل الأوسط." انظر:
Saleh Abdel Jawad, "Zionist Massacres: The Creation of the Palestinian Refugee Problem in the 1948 War", in *Israel and the Palestinian Refugees,* edited by Eyal Benvenisti et al. (New York: Springer, 2007), p. 66.

٧٧ Eshel, op. cit., pp. 13-14, 17

٧٨ Ibid., p. 19.

٧٩ Markovitzky, op. cit., p. 31.

٨٠ Lorch, op. cit., p. 334.

٨١ Spiro Munayyer, with an introduction by Walid Khalidi, "The Fall of Lydda", *Journal of Palestine Studies* 108, vol. XXVII, no. 4 (Summer 1998), p. 88.

٨٢ Ibid., p. 81.

٨٣ Lorch, op. cit., p. 335.

٨٤ Munayyer with Khalidi, op. cit., p. 92; Morris, op. cit., p. 426.

٨٥ Morris, op. cit., p. 428.

٨٦ Allon, *Shield of David...*, op. cit., p. 217.

٨٧ Munayyer with Khalidi, op. cit., p. 82.

٨٨ يبدو أن اللواء ٨٢ شارك في احتلال دير طريف (حيث تأخّر تقدّمه في بداية عملية داني) وبرفيليا، وفي تدمير الطيرة وعنابة. انظر: Khalidi, *All that Remains...*, op. cit., pp. 356, 361, 379.

وفي إثر عمليات الطرد، تلقّى اللواء أوامر من يتسحاق رابين بمواجهة القرويين العائدين بالرصاص الحي، كما أن الحاكم العسكري الإسرائيلي المحلي اتّهمه بالنهب غير المأذون. انظر: Morris, op. cit., pp. 442, 459 (Fn. 176), 454 (Fn. 86).

٨٩ إن بعض ردات فعلهم كشهود مسجَّل في: Bercuson, op. cit., pp. 166-167.

٩٠ Amos Kenan, "The Legacy of Lydda: Four Decades of Blood Vengeance", *The Nation* (February 6, 1989), pp. 155-156. Discussed in Norman Finkelstein, "Rejoinder to Benny Morris", *Journal of Palestine Studies* 82, vol. XXI, no. 2 (Winter 1992), pp. 70-71.

٩١ Cull, Aloni, Nicolle, op. cit., p. 182.

٩٢ Dunkelman, op. cit., p. 244; Nazzal, op. cit., p. 24.

٩٣ Nazzal, op. cit., pp. 72-73.

٩٤ Khalidi, *All that Remains...*, op. cit., p. 22.

٩٥ Ibid., p. 19.

٩٦ يشير دونكلمان بصورة خاصة إلى دور معاونه جو وينر ـ "سرجنت ميجر سابق في القوة الدائمة في المدفعية الكندية وكان معي في سلاح الهاون" ـ ويصف اعتماده التكتيكي على هذا التحايل المدروس تجاه دفاعات القرى: "سار كل شيء بحسب الخطة. وبينما كانت المنطقة المسلمة تتعرض للقصف، اقتربت القوة المهاجمة ـ الكتيبة المسلحة ٧٩ بقيادة جو وينر، مع سريّتين من الكتيبة ٢١ بقيادة أريل ياريف ـ من الأسوار، وتبادلت إطلاق النار مع المدافعين الدروز من دون أن يصاب أحد بأذى. وقد عبر المهاجمون بسرعة الخطوط الدرزية، فدخلوا القرية واقتادوا المسلمين من الجهة الخلفية. وفي فترة قصيرة، وقعت القرية بأكملها في أيدينا." انظر: Dunkelman, op. cit., pp. 247, 261; Laila Parsons, *The Druze between Palestine and Israel, 1947-1949* (London: Macmillan Press, 2000), pp. 78-83.

٩٧ Morris, op. cit., p. 419.

٩٨ Dunkelman, op. cit., p. 266.

٩٩ Morris, op. cit., p. 419.

١٠٠ Nazzal, op. cit., quoting Salih Muhammed Nassir, p. 75.

١٠١ Khalidi, *All that Remains...*, op. cit., p. 352.

١٠٢ Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, op. cit., p. 158.

١٠٣ توخّياً للدقّة، حدث تقليص إضافي للقطاع حتى بعد اتفاقات الهدنة لسنة ١٩٤٩. انظر: Salman Abu-Sitta, *The Atlas of Palestine 1917-1966* (London: Palestine Land Society, 2010), p. 98.
وفيما يتعلق بالزيادة السكانية، تقول سارة روي إن العدد "تضاعف ثلاث مرات"، انظر: Sara Roy, *The Gaza Strip: The Political Economy of De-development* (Washington: Institute for Palestine Studies, 1995), p. 15.
أمّا موريس فيشير في كتابه: Morris, op. cit., pp. 472-473 إلى زيادة عدد السكان من ١٠٠,٠٠٠ إلى ٢٣٠,٠٠٠ نسمة.

١٠٤ Cull, Aloni, Nicolle, op. cit., pp. 263, 273.

١٠٥ Morris, op. cit., p. 472; Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, op. cit., p. 194.
وأغلبية الروايات التاريخية التي تتطرق إلى استخدام القوة الجوية في فلسطين ٤٨، تأتي على ذكر القصف المكثف للمنطقة.

١٠٦ انظر: Dunkelman, op. cit., p. 237. (والمخطّط المعني هو البروفسور يوحنان راتنر). وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن سعسع كانت هدفاً لإحدى الفظائع الأولى التي ارتكبتها الهاغاناه في

المنطقة، في ليل ١٤ – ١٥ شباط/ فبراير. انظر: Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, op. cit., pp. 77-78.

١٠٧ Edgar O'Ballance, *The Arab- Israeli War, 1948* (London: Faber and Faber, 1956), pp. 186-187; Morris, op. cit., p. 473.

١٠٨ Nazzal, op. cit., quoting Umm Shahadah al-Salih, p. 95.

١٠٩ ينقل موريس عن غيرشون غلعاد، مسؤول الاستخبارات في الجبهة الشمالية في الجيش الإسرائيلي، قوله إن "'ما يتراوح بين ١٥٠ و٢٠٠' عربي، 'بينهم عدد من المدنيين'، لقوا حتفهم في المعركة على الجش." انظر: Morris, op. cit., p. 474.
وقال عضو في الكنيست ينتمي إلى "قائمة الناصرة الديموقراطية" (العربية): "بعد يومين من الاستيلاء على الجش، طوّق الجيش القرية ونفّذ حملات تفتيش. وخلال التفتيش، نهب الجنود عدة منازل وسرقوا ٦٠٥ جنيهات ومجوهرات وأشياء ثمينة أخرى. وعندما أصر الأشخاص الذين تعرضوا للسرقة على الحصول على إيصالات بشأن مقتنياتهم، اقتيدوا إلى مكان بعيد وأعدموا رمياً بالرصاص." انظر:
Tom Segev, Arlen Neal Weinstein, English ed., *1949: The First Israelis* (New York: The Free Press, 1986), p. 72.

١١٠ Morris, op. cit., pp. 473-474; Khalidi, *All that Remains...*, op. cit., p. 497.

١١١ يتحدث ضابط إسرائيلي آخر عن "تفجير ٩٤ شخصاً في منزل في صَلْحة." انظر: Morris, op. cit., p. 500 (Fn. 118).

١١٢ Ibid., p. 473.

١١٣ Ibid., p. 477.

١١٤ انظر: Daryl Li, "The Gaza Strip as Laboratory: Notes in the Wake of Disengagement", *Journal of Palestine Studies* 138, vol. XXXV, no. 2 (Winter 2006), pp. 38-55; Jonathan Cook, *Blood and Religion: The Unmasking of the Jewish and Democratic State* (London: Pluto Press, 2006).

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مذكرات محام فلسطيني
حنا ديب نقارة
محامي الأرض والشعب

تحرير
عطا الله سعيد قبطي

٣٨٥ صفحة ١٢ دولاراً